إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع
المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي
في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 – 1962م

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق لـ 04 و05 جوان 2022

الشّيخ محمّد خير الدّين الفَرْفاري البَسْكَري وجُهودُه الإصلاحيّة والتربويّة في الجَنوب الشّرقي الجَزائري 1930 ـ 1962م

Sheikh Muhammad KhairEddin Al-Farfari Al-Biskri and his reformist and educational efforts in the southeast of Algeria during the period from 1930-1962

أ.د/ نبيل موفق

مخبر الدّراسات الفقهيّة والقضائيّة ، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

mouffok-nabil@univ-eloued.dz

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: جاء هذا البحثُ ليجلّيَ حياة ونشأة أحد روّاد الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري، ألا وهو الشّيخ الأستاذ محمّد خير الدّين الفَرْفاري الطّولقي البَسْكَري، فتمّ عرضُ أهمّ معالم المنهج الإصلاحي، والنّضال الثّقافي، والجهاد الدّعوي، والنّشاط التّربوي لهذه الشّخصية، وبيان أثر جهوده في محاربة السّياسة المنتهجة من قبل المحتلّ الفرنسي؛ وذلك للحفاظ على الهويّة الإسلاميّة والعربيّة للشّعب الجزائري، وخَلُص البحثُ إلى أنّ نظرة ومنهج الشّيخ محمّد خير الدّين للإصلاح لم يفرّق فيه بين الإصلاح الدّيني والثّقافي والإصلاح الوطني، بل جمع بينهما بذكاء وقّاد، وحكمة بالغة، جلّت على جهوده الكبيرة في إعادة تأهيل أفراد الشّعب الجزائري في الجنوب الشّرقي وغيره علمياً وثقافياً وتربويّاً.

الكلمات المفتاحية: محمّد؛ خير الدّين؛ جهوده؛ الإصلاحية؛ التّربويّة.

Abstract :

This research came to clarify the life and upbringing of one of the pioneers of reformist thought in the southeast of Algeria, namely, Sheikh Professor Muhammad KhairEddin Al-Farfari Al-Toulqi Al-Biskari. adopted by the French occupier; In order to preserve the Islamic and Arab identity of the Algerian people, the research concluded that Sheikh Muhammad Khair al-Din's approach to reform did not differentiate between religious and cultural reform and national reform, but rather combined them with intelligence, leadership, and great wisdom, which demonstrated his great efforts to rehabilitate the Algerian people in Southeast Asia and others scientifically, culturally and educationally.

Keywords: Mohammed; Khaireddin; his efforts; reformatory; pedagogical**.**

1. مقدمة

من الحقائق التي يتّفق عليها جميع العقلاء، أنّ تقليب صفحات التّاريخ والبحث فيها عن سير وتراجم وجهود القيادات والشّخصيات في أيّ بلد من البلدان يُعدّ عملاً ضرورياً ومهمّاً لكي يتسنّى ربط الأجيال اللّاحقة بأسلافها، لأنّ الحضارة الإنسانية ذات طبيعة تراكميّة تكامليّة يبدأ المتأخّر من حيث انتهى المتقدّم، وهكذا حتّى تسير عجلةُ البناء الحضاري والعمراني لأمّة من الأمم. وعليه فاستجلاء مواقف المصلحين وأصحاب النّضال الثّقافي في تاريخ الجزائر، ومدارسة جهودهم في مجابهة المحتلّ الفرنسي وإفساد مشروعه لطمس الهوية الدّينية والوطنية للشّعب الجزائري من أعظم ما يمكن أن يهتمّ به المؤرّخون والمثقّفون؛ وذلك في شكل ملتقيات ومؤتمرات وندوات كهذا الملتقى الذي يقيمه معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي بعنوان: "المقاومة الثّقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري ما بين 1900م-1962م".

وحينما عزمت المشاركة في هذا الملتقى أخذت أبحث عن أحد أعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري ممّن كانت لهم بصمة واضحة في النّضال الثّقافي والتّربوي والدّعوي من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية للشّعب الجزائري، وباعتباري من منطقة الزّيبان بالرّبوع البسكريّة وقع اختياري على أحد الرّوّاد الذين حملوا رسالة العلم والتّربية والإصلاح للدّفاع عن الهويّة الوطنية من أبناء تلك المنطقة مولداً ونشأةً وتعلّماً ودعوةً وإصلاحاً ألا وهو الشّيخ الأستاذ محمّد خير الدّين الفرفاري الطّولقي البسكري؛ والذي عاش في ظروف استعمارية قاسية جعلت منه مصلحاً مثقّفاً، وعالماً معلّماً. والفترة الإصلاحيّة للشيخ التي تناولها البحث تمتدّ بين 1930م إلى 1962م، وهي الفترة المحدّدة ببدايات العطاء الإصلاحي والثّقافي للشّيخ لأنّه في سنة1930 كان عمره ثمانيةً وعشرين سنةً، ووقتها برز الشّيخ كقائد من قادة الحركة الإصلاحيّة خاصة والحركة الوطنية بشكل عام.

*** الإشكالية:**

تتمثّل إشكالية هذا البحث في دراسة علم من أعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري وهو الشّيخ محمّد خير الدّين الفرفاري؛ فمن هو الشّيخ محمّد خير الدّين؟ وما هي أهمّ جهوده الإصلاحيّة والتّربويّة خلال الفترة ما بين 1930م و 1962م؟

*** أهداف البحث:**

بيان جوانب مهمّة من حياة الشّيخ محمّد خير الدّين من حيث نشأته العلمية، والوظائف التي زاولها، والمسؤوليات التي تقلّدها، والآثار التي خلّفها، عسى أن تكشف الغطاء على معالم هذه الشّخصية الوطنية والإصلاحية الفذّة في جنوبنا الشّرقي للوطن. تسليط الضّوء على الجهود الإصلاحيّة التي قام بها الشّيخ محمّد خير الدّين، والذي يعتبر

من الرّواد الأوائل الذين التحقوا بركب النّضال الإصلاحي في مواجهة مشاريع التّجهيل والتّفقير والتّضليل والإقصاء التي كان يمارسها المحتلُّ الفرنسي ضدّ الشّعب الجزائري. تجلية المكانة التي تبوّءها الشّيخ محمّد خير الدّين عند كبار المصلحين والدّعاة الذين عاصرهم وعلى رأسهم العلاّمة عبد الحميد ابن باديس الذي كان موطن ثقته بحيث كلّفه بالعمل الإصلاحي والتّربوي على مستوى الجنوب الشّرقي آنذاك.

عرض لأهمّ المواقف والجهود التي قام بها الشّيخ محمّد خير الدّين في مجال التّربية والتّعليم، وصون اللّغة العربية من خلال نضاله الصّحفي، ونشاطه الدّؤوب في العمل القاعدي وتنشئة الأجيال، وتربيتهم على الدّين الإسلامي واللّغة العربية، وتقريبهم من تاريخهم المجيد الذي يعبّر عن هويتهم الوطنية الحقّة.

2. حياة الشّيخ محمد خير الدّين وآثاره:

2،1. الفرع الأوّل: ميلاده ونشأته

الشّيخ محمّد خير الدّين مصلح جزائري وهو من بين الرّجال الذين أسهموا في إرساء الحركة الإصلاحيّة في الجزائر، وقد تميّز بنضاله الوطني في الدّفاع عن الهويّة الجزائريّة بمختلف الوسائل، عن طريق تأسيس المدارس للتّعليم والوعظ والإرشاد في المساجد والمساهمة بالمقالات المختلفة في الصّحافة الإصلاحيّة، ومشاركته في الثّورة التّحريريّة، وهذا كلّه في سبيل الدّفاع عن الوطن ومقاومة المستعمر الأجنبي.

أوّلا- ميلاده:

وُلد محمّد خير الدّين في شهر ديسمبر سنة 1902م ببلدة "فرفار[1]" بواحات الزيبان (طولقة) ببسكرة من أبٍ يُدعى خير الدّين بن محمّد أبي جملين، وأمّ هي الحاجة الزّهراء بنت المغربي، وقد كان الشّيخ محمّد خير الدّين محظوظاً في طفولته نظراً للجوّ الذي وجده في عائلته كما أنّ والده كان مهتمّاً به وبإخوانه على أن يسلكوا الطّريق الصّحيح والتّربية الدّينيّة التي لا توجد أحسن منها ويبدو أنّ نهج العلماء والمصلحين بدأ يرتسم في ذهن الابن الأكبر حيث كان يسمع ويرى هؤلاء الشّيوخ والعلماء والمصلحين داخل المنزل كيف يتناقشون ويتحادثون، فكان ذلك مهمّاً له في تكوينه. لقد نشأ محمّد خير الدّين في أسرة ميّزها التّعاون والاحترام المتبادل، فقد كان متعوناً مع إخوته خاصة ما تعلّق بالأرض التي علّمتهم الصّبر، فقد كانوا يملكون أرضاً فلاحيّةً تزخر بنخيلها ومائها وخيراتها، واهتمّوا بها لأنّ الأرض هي مصدر مهمّ للرّزق خاصة في الجنوب وهو عنوان الثّراء في ذلك الوقت، وقد مدح الكثير بسكرة حتّى لقّبوها بعروس الزّيبان العربيّة، وعاصمة الصّحراء القسنطينيّة، وقد عرّفها المؤرّخون منذ القديم بكثرة العمران ورواج التّجارة والفلاحة، وتربية المواشي وخدمة

1- بلدة فرفار من قرى مدينة طولقة بولاية بسكرة بالجنوب الشّرقي الجزائري.

البساتين، وأهمّ بضائع التّجارة فيها إلى الآن التّمر بأنواعه[2].

وقد استفاد الشّيخ محمّد خير الدّين في بداية حياته من منزله ووالده كما أنّ الفلاحة أدخلته في ميدان التّجارة، وبذلك نمى فيه نشاط كبير استغلّه في البحث عن العلم والمعرفة، حيث انتقل إلى قسنطينة لينهل من منابع محاضرها ومعاهدها ثمّ سافر إلى تونس ليتتلمذ على كبار علماء جامع الزّيتونة، وقبل أن يُنهي تعليمه بتونس بعام أي في سنة 1924م توفي والده، حيث أوكلت له مسؤوليّة ثقيلة بعد عودته من تونس وإنهاء دراسته، فوجد نفسه مكان والده لرعاية إخوته خاصة الأخ الأصغر عبد السّلام الذي كان عمره حينها عامين، فالاهتمام بشؤون العائلة وشؤون الفلاحة أصبحا أمرين ضروريين، فيقول الشّيخ خير الدّين في مذكّراته: "عدت إلى الجزائر سنة 1925م وكان والدي قد توفّي في أواخر عام 1924م، عن عمر لم يتجاوز تسعةً وأربعين عاماً؛ فألفيت نفسي أمام وضع جديد كان لزاماً عليّ أن أواجهه وأن أتحمّل فيه المسؤوليّة كاملةً فقمتُ بتربية إخوتي وتوجيههم التّوجيه السّليم، وحافظتُ على ما ترك والدنا من ثروة الأملاك الفلاحيّة والتّجاريّة، واجتهدتُ في العمل على تنميتها وتنظيمها معهم"[3].

وقد كانت الظّروف مضطربة في نهاية العشرينيات حيث وقع صدام بين الشّيخ محمّد خير الدّين وبن قانة شيخ العرب؛ وقد كانت واحات الزّيبان تحت الحكم العسكري، ونشاط الشّيخ في فرفار وضواحيها جعل السّلطات الفرنسيّة وعملاءَها يدقّون ناقوس الخطر ونظراً للمضايقات والشّكاوى التي كانت تعرقله، انتقل رفقة والدته وإخوته إلى بسكرة سنة 1930م التي كانت تحت الحكم المدني وهناك اشترى داراً وبستاناً من النّخيل وأعدّ مركزاً للعمل التّجاري[4]. وقد كان انتقاله هذا بداية مرحلة مهمّة في حياته على مستوى المجالين المادّي والإصلاحي؛ فالأوّل كان بتعاون جميع إخوانه، والثّاني كان بمفرده حيث سينضمّ إلى الحركة الإصلاحيّة التي قادها الشّيخ الطّيّب العقبي ببسكرة، وبالتّالي انفتح الباب الإصلاحي أمامه وتبدأ مسيرة جديدة وطويلة في نضاله الوطني.

ثانياً- تعليمه ورحلاته:

بدأت رغبة الشّيخ محمّد خير الدّين في التّطلّع نحو العلم والمعرفة منذ أن كان طفلاً، حين كان بعض الشّيوخ يجتمعون في منزلهم مع والده فكان يسمع ويرى ما يدور بينهم من حديث ونقاش كما أنّ والده حرص على تعليم أبنائه القرآن الكريم وقراءة المتون العلميّة وإقامة الصّلوات وبذلك فقد تعلّم الابن الأكبر الكتابة والقراءة وأتمّ حفظ القرآن الكريم. ورغبة الشّيخ في الاستزادة من العلم والنّهَل من ينابيعه جعلته يفكّر في أن يذهب بعيداً في

2- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، دار النّعمان، الجزائر، ط1، 1014م، ص17.

3- محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ محمّد خير الدّين، مؤسّسة الضّحى، الجزائر، 2002م، ج1، ص70.

4- المصدر نفسه.

طلبه، فقام برحلتين هامّتين في حياته التّحصيليّة جعلتا منه فيما بعد قائداً من قادة الإصلاح في الجزائر، فالأولى كانت نحو مدينة قسنطينة، والثّانية باتّجاه جامع الزّيتونة بتونس. فالرّحلة الأولى نحو قسنطينة كانت المحطّة الأولى التي أخذ منها الشّيخ ينابيع العلم، والسّبب في رحلته هو والده الذي زار قسنطينة في أكتوبر1916م لقضاء بعض شؤونه وتوجّه إلى مسجد الأربعين شريفاً لأداء الصّلاة، وحضر درس إمامه الشّيخ الطّاهر بن زقوطة، وبعد الفراغ من الدّرس تحدّث الوالد مع الإمام بشأن تعليم أبنائه، فسأله إذا كان أحدهم قد أتمّ حفظ القرآن فأجابه أنّ ابنه الأكبر قد أتمّه، فعرض عليه الشّيخ أن يبعثه إلى قسنطينة، وعندما وصل اتّجه إلى مسجد الأربعين شريفاً ووضع أغراضه في بيت أُعدّ له[5].

وقد كانت بمدينة قسنطينة حركة علميّة منقطعة النّظير، وكان بها ثلاثة مراكز تعليميّة وهي: الجامع الأخضر، ويدرّس فيه الشّيخ عبد الحميد ابن باديس ويضمّ 200طالباً، وجامع الكتّاني ويدرّس فيه الشّيخ أحمد الحبيباتي، ويضمّ حوالي 50 طالباً، ومسجد الأربعين شريفاً ويدرّس فيه الشّيخ الطّاهر بن زقّوطة ويضمّ حوالي 20طالباً كان من بينهم الشّيخ محمّد خير الدّين آنذاك، حيث بدأ دروسه سنة 1916م على يد شيخه وأستاذه الطاهر بن زقوطة، يقول عنه الشّيخ أحمد حمّاني: "وقد عرفت الشّيخ الطّاهر خطيب جامع "سيدي الكتاني" أو "صالح باي" وكان عظيم التّحصيل كفؤ في مهنته، يشتغل بتلقين الطّلبة الواردين مختلف الفنون الإسلاميّة، والعلوم العربيّة"[6]. وأمّا الشّيخ محمّد خير الدّين فيقول في مذكّراته: "تلقّيت الدّرس الأوّل عام1916م على يد الشّيخ الطّاهر في علم النّحو، وتابعت دراستي فقرأت عليه كتاب (الأجرّومية) في النّحو، ومنظومة (الرّحبية) في الفرائض، و(الرّسالة) لابن أبي زيد القيرواني في الفقه"[7].

أمّا الرّحلة الثّانية فقد كانت إلى تونس؛ حيث التحق بجامع الزّيتونة عام 1918م، بعد أن تعلّم بقسنطينة عامين انتهل منها بعض العلوم لكنّ شغفه لمزيد من العلوم والمعرفة وسماعه الأخبار الجامع وما فيه من المزايا دفعه إلى الارتحال، قال الشّيخ في مذكّراته: "ثمّ دخلت الجامع فهالني ما رأيتُ من فروق واضحة بين الحياة العلميّة في هذا المسجد العامر، والحياة العلميّة في قسنطينة، فقد شاهدتُ عشرات الحلقات العلميّة يقوم بإلقاء الدّروس فيها أساتذةٌ أجلاّء... ينهمرُ العلم من أقوالهم كالسّيل الدّافق وقد جلس التّلاميذ لسماع الدّروس... وعلى سيماهم الرّغبة الصّادقة... على يمين المحراب وشماله خزائن الكتب التي تبرّع بها الخيّرون... هناك مكتبة العبدليّة الكبيرة الواسعة"[8].

5- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص91.

6- أحمد حمّاني، صراع بين السّنّة والبدعة، دار البعث قسنطينة، ط1، 1984م، ج2، ص279.

7- محمّد خير الدّين، مذكرات الشّيخ محمّد خير الدّين، ج1، ص64.

8- المصدر نفسه.

وبعد أن أكمل الشّيخ سبع سنوات من الدّراسة أصبح مرشّحاً للحصول على الشّهادة النّهائيّة وهي شهادة "التّطويع" وبالتّالي كان لزاماً عليه أن يقوم بالامتحان حيث يشرف عليه مجلس شرعي برئاسة شيخ الإسلام وقاضيين أحدهما مالكي والآخر حنفي، كما يحضر النّاظر العام للجامع والمدرّسون وعددٌ من الطّلاّب وكان الطّالب يُجري ثلاث مراحل: كتابية، وشفويّة، وتطبيقيّة، وفي شهر جوان عام1925م تقدّم الشّيخ إلى الامتحان فكان موضوع مقالته "القسمة عند فقهاء المالكيّة" فأجاد في عرضها وتفصيلها، أمّا موضوع الدّرس فكان في مادّة النّحو وهو شرحُ بيتَيْن من ألفيّة ابن مالك استغرق فيها ساعة من الزّمن في الشّرح مقدّماً الأدلّة العلميّة، وقد أثنى عليه أعضاءُ اللّجنة خاصّة الشّيخُ العلاّمةُ محمّد الطّاهر ابنُ عاشور، وبعد ثلاثة أيّام عُلّقت النّتائجُ على جدران الجامع الأعظم وتحصّل الشّيخ محمّد خير الدّين على الرّتبة الثّانية من بين خمسين طالباً ناجحاً[9]. وذاع هذا الخبرُ حتّى تناقلته الصّحفُ والجرائد الجزائريّة، فقد كتبت جريدة النّجاح في أحد أعدادها: "فاز في امتحان الكلّية الزّيتونيّة هذه السّنة العلماء الأجلاّء المشايخُ السّادةُ: الطّيّب بن الشّيخ الهاشمي من وادي سوف... ومحمّد خير الدّين الفرفاري فهنّئهم بالدّرجة العلميّة التي حصلوا عليها بفضل كدّهم وألمعيّتهم كما نهنّئ القطر الجزائريّ بهم"[10].

لقد استفاد الشّيخ محمّد خير الدّين من رحلته إلى تونس، وقبلها إلى قسنطينة حيث حصل على أعلى الشّهادات العلميّة في ذلك الوقت من الزّيتونة، واستزاد بالعلم والثّقافة العربيّة الإسلاميّة من جهة أخرى، ويبدو أنّه استفاد أموراً أخرى على حسب ما ذكر في مذكّراته أشعلت فيه روح الوطنيّة حيث أنّه حضر بعض المظاهرات التي وقعت في تونس ضدّ الفرنسيين، وهذا ما أثّر في تكوينه وهيّأه لمجالين هما الإصلاح الدّيني والإصلاح الوطني، فيقول: "وهكذا استفدتُ من إقامتي بتونس –زيادة على العلم- بزاد آخر سياسي واجتماعي ثري، ورجعت إلى الجزائر مؤمناً بأنّ نهضتنا تتحقّق بالعمل في المجالين السّابقين، إحياء الدّين، وإذكاء روح النّهضة بين المواطنين"[11].

2،2. وظائفه وآثاره ووفاته:

أوّلا- وظائفه ومسؤولياته:

يُعتبر الشّيخ محمّد خير الدّين من أبرز قادة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين فعلمه وعمله وحنكته عوامل جعلته يتقلّد وظائف ومسؤوليّات خلال مسيرته الإصلاحيّة والتّربويّة والنّضاليّة؛ فأيّامه كانت تنقّلات مستمرّة في مختلف مدارس ومساجد أنحاء القطر

9- المصدر السّابق، ج1، ص66.

10- جريدة النّجاح، مقال العلماء الجدد من كلّيّة الزّيتونة، العدد 216، 10 جويليّة1925م.

11- محمّد خير الدّين، مذكّراته، ج1، ص68.

الجزائري، وفيما يلي عرضٌ لأهمّ الوظائف التي شغلها والمسؤوليات التي تقلّدها[12]:

يُعتبر الشّيخ محمّد خير الدّين من المؤسّسين الأوائل لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931م. عُيّن كعضو مستشار في الاجتماع الثّاني للجمعيّة عام 1932م ثمّ أصبح مراقباً عامّاً لها. تولّى بامتياز جريدة البصائر منذ صدورها في 27 ديسمبر 1935م إلى ان توقّفت عند العدد 180 في25أوت 1939م، والجمعيّة هي التي أوقفتها حتّى لا تكون مضطرّةً لنشر ما يُخالف مبادئها وكذلك فعلت بمجلّة الشّهاب. عُيّن كعضو في اللّجنة التّنفيذيّة للمؤتمر الإسلامي عام 1936م. شارك في "البيان الجزائري" في فيفري 1943م إلى جانب فرحات عبّاس وممثّلين آخرين لمختلف الاتّجاهات الوطنيّة. وتولّى نيابة رئاسة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في عهدها الثّاني من 1946م إلى 1956م إلى جانب الشّيخ العربي التبسي. تولّى نيابة إدارة معهد ابن باديس بفسنطينة الذي تأسّس سنة 1947م. كان عضواً مؤسّساً في جبهة الدّفاع عن الحريّة واحترامها، التي تأسّست في أوت 1951م، ومعه الشّيخ العربي التبسي، وقد شارك باسم جمعيّة العلماء إلى جانب اتّجاهات أخرى.

انضمّ الشّيخ محمّد خير الدّين إلى الثّورة والتحق بركب الكفاح رفقة ثلّة من العلماء كالشّيخ العربي التبسي، والشيخ أحمد حمّاني وغيرهما، ممّا زاد في قوّة وصلابة الثّورة ومن بين الوظائف والمسؤوليات التي مارسها أثناء الثّورة: عُيّن كممثّل لجبهة التّحرير الوطني في المغرب، وبقي مسؤولاً سياسياً في المغرب حتّى أخذت الجزائر استقلالها سنة 1962م حيث عاد إلى الوطن وعيّن عضواً في البرلمان الجزائريّ الأوّل، لكنّه استقال منه فيما بعد. شارك في مؤتمر طنجة المنعقد من 27-30أفريل 1958م إلى جانب فرحات عبّاس، عبد الحفيظ بوصوف، وعبد الحميد مهري، أحمد بومنجل. عُيّن كعضو بالمجلس الوطني للثّورة الجزائريّة.

ثانياً- وفاته آثاره:

عاش الشّيخ واحداً وتسعين عاماً، جزؤها الأكبر عاشه أثناء الفترة الاستعماريّة، حيث كرّس حياته في سبيل الدّفاع على مقوّمات الشّخصيّة الوطنية من لغة ودين في إطار جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ثمّ جندياً في الثّورة التّحريريّة، أمّا بعد الاستقلال فنشاطه كان محدوداً وفليلاً نظراً لتقدّمه في السّن، ومنذ بداية الثّمانينات مال إلى العزلة وقراءة الكتب، واقتناء المخطوطات النّادرة، وتمكّن من إنشاء مكتبة عظيمة يعتزّ بها ويعمل لإنمائها، وكثيراً ما كان يستقبل في داره بعض إخوانه القدماء من علماء وسياسيين ومناضلين وتجّار، يحمل

12- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص91-92، وعمّار هلاّل، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1995م، ص273، محمّد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة هومة، الجزائر، 2000م، ج2، ص10، جريدة المنار، مقال: لجنة إنشائيّة لتأسيس جبهة جزائريّة للدّفاع عن الحريّة واحترامها، العدد6، 30 جويلية 1951م، ص01، عمّار طالبي، آثار ابن باديس، دار النّهضة العربية، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص20-22.

له الجميع الاحترام والتّقدير والثّقة، ويجدون في حضرته الأنس والذّكريات العطرة[13].

توفي الشّيخ يوم الجمعة 26 جمادى الثّانية 1414هـ، الموافق لـ10 ديسمبر 1993م، في الجزائر العاصمة بعد مرض عضال ثمّ نقل جثمانه إلى بسكرة ودفن في 11ديسمبر بعد صلاة العصر في روضة أسرته بمقبرة البخاري، وقد قام بتأبينه الشّيخ علي المغربي بكلمة شملت معظم محطّات حياته، وشيّت جنازته في موكب عظيم ومهيب، وقد حضرها شخصيات علميّة وثقافيّة بارزة منها: محمّد الصّالح يحياوي، ومحمّد الشّريف مساعديّة، ومحمود الواعي سليمان الشّيخ، ومحمّد سعيدي وغيرهم، وكتب تلميذه الشّيخ أحمد سحنون فيه قصيدة رثائيّة تلاها نيابة عنه الشّيخ محمّد الطّاهر فضلاء[14].

وقد خلّف الشّيخ آثاراً لكنّها ليست بالكثيرة؛ فلم يترك سوى بعض المقالات التي نشرت في البصائر والشّهاب، فهو ممّن سخّر عمره في إعداد الرّجال الأبطال وتهيئة النّشء الجديد على تأليف الكتب، وذلك بسبب انشغاله بالتّعليم وتنقّله بين مدارس جمعيّة العلماء في مختلف أنحاء القطر الجزائري، والقيام فيها بالوعظ والإرشاد والتّعليم، أمّا أثناء الثّورة التّحريريّة فقد خصّص كلّ وقته للكفاح المسلّح من أجل تحرير البلاد، وبعد الاستقلال شارك في الحياة السّياسية إلاّ أنّ مشاركته لم تتعدّ العقد الثّاني نظراً لتقدّمه في السّنّ إضافة للمضايقات التي كان يتعرّض لها ممّا أدّى إلى انعزاله نهائياً، ومن الآثار التي خلّفها الشّيخ[15]:

- خلّف مكتبة هائلة زاخرة بشتّى أمّهات الكتب القديمة والحديثة من كلّ فن من فنون المعرفة، وقد قدّمها هديّةً لمكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة بقسنطينة، تحتوي على 770كتاباً في مختلف الفنون.

- أصدر مذكّراته في جزأين: الكتاب الأوّل يشتمل على كلّ نشاطه من صغره حتّى قيام الثّورة التّحريريّة، صدر عام1985م، والكتاب الثّاني: تحدّث فيه عن كلّ نشاطه من قيام الثّورة التّحريريّة إلى غاية الاستقلال، ثمّ أعادت مؤسّسة الضّحى طبعهما عام 2002م. له مجموعة من المقالات التي كتبها في جرائد وصحف الجمعيّة، وقد كتب الأغلبيّة منها في البصائر، وبعضها في الشّهاب، وهي تعالج مختلف المواضيع الدّينيّة والتّعليميّة. قام بتصدير مجموعة جريدة البصائر من ديسمبر1935م إلى جانفي 1937م بطلب من الشّيخ محمد الحسن

13- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص93.

14- أحمد سحنون، تأبينيّة شيخي العظيم الإمام محمّد خير الدّين، مجلّة الموافقات، العدد3، الجزائر، جوان 1994م، ص381.

15- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص92، وأسعد الهلالي، الشيخ محمّد خير الدّين وجهوده الإصلاحيّة في الجزائر 1902-1993، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، نوقشت عام2006م، ص55.

فضلاء –أحد تلاميذ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين- وكان ذلك عام 1984م. خلّف مقالاً بعد الاستقلال في مجلّة الثّقافة العدد81 ماي/جوان 1984م، عنوانه: "مناقشات حول خلافة ابن باديس".

ترك أثراً مادّياً هو مسجد "السّنّة" الذي بناه في الثّمانينيات بمدخل مدينة بسكرة، وتصميمه يشبه جامع الزّيتونة لكنّه أصغر حجماً منه، وهو يُبيّن اعتزاز الشّيخ محمّد خير الدّين بالزّيتونة التي كانت إحدى محطّات حياته الأساسيّة في دراسته ونضاله الدّيني والوطني.

3. جهود الشّيخ محمّد خير الدّين في المجال الإصلاحي:

يرتبط مفهوم الإصلاح بالحركة الإصلاحيّة التي ظهرت في الجزائر وتزعّمتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التي تأثّرت بتيّار الجامعة الإسلاميّة الذي كان وراءه رجالٌ عظماء كجمال الدّين الأفغاني، ومحمّد عبده، ومحمّد رشيد رضا، الذين دعوا إلى التّمسّك بتعاليم الدّين الإسلامي الصّحيح ومحاربة البدع والخرافات، وكلّ ما يخالف كتاب الله وسنّة رسوله –صلّى الله عليه وسلّم-. ولسوف نتحدّث عن هذه الفكرة في الفرعين الآتيين:

3،1. مكانة الشّيخ محمّد خير الدّين في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

الشّيخ محمّد خير الدّين رائد من الرواد الأوائل، وعالمٌ من علمائها المصلحين وأحد أقطاب جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وكان من جيل الرّجال العمالقة وعلى رأسهم الشّيخ عبد الحميد بن باديس ومعه الشّيخ الإبراهيمي، والشّيخ مبارك الميلي، والأستاذ أحمد توفيق المدني، والشّاعر محمّد العيد آل خليفة، والشّيخ العربي التّبسي، وغيرهم كثيرون. وقد افتكّ الشّيخ مكانته منذ السّنوات الأولى للعمل الإصلاحي الذي قاده العلاّمة عبد الحميد ابن باديس في العشرينيات، فقد حضر اجتماع الرّوّاد سنة1928م، وكلّفه الشّيخ ابن باديس بالوعظ والإرشاد في "فرفار" وما جاورها من قرى واحات الزّيبان[16].

وبذلك فهو من الرّعيل الأول الذي تشرّف بوضع أسس الجمعيّة في 5ماي 1931م، ولكنّه لم يكن من أعضاء مجلس الإدارة الأوّل نظراً لانضمام ممثّلي الزّوايا والمثقّفين وأشخاص عاديين، وابن باديس لم يشأ أن يكون عدد العلماء المصلحين هم الأغلبيّة كي لا يُلفت انتباه الإدارة الفرنسيّة حتّى لا تقوّض نشاط الجمعيّة وتحول دون تحقيق أهدافها[17]. وظهر اسم الشّيخ محمّد خير الدّين في مجلس الإدارة بعد الانشقاق الذي وقع عام 1932م حيث تمّ إخراج ممثّلي الزّوايا والمرابطين بعد صراع عنيف قاده ابن باديس وزملاؤه وسمح

16- بسّام العسيلي، عبد الحميد ابن باديس وبناء قادة الثّورة الجزائريّة، دار النّفائس، بيروت، ط2، 1983م، ص7.

17- المصدر نفسه، ص9.

للحركة الباديسيّة بالانطلاق، فكانت هذه السّنة نقطة بداية إرساء جذور الجمعيّة عبر مختلف أنحاء القطر الجزائري، وأصبح الشّيخ محمّد خير الدّين مراقباً عامّاً للجمعيّة حيث كان يراقب كلّ نشاطات الجمعيّة وهي في الحقيقة مهمّة صعبة، كما أنّ هذه المكانة جعلت الشّيخ يتحرّك في كلّ الاتّجاهات خدمة لمبادئ الجمعيّة التي دافعت عن الدّين واللّغة والوطن.

ولقد كان الإمام ابن باديس يعتزّ كثيراً بالشيخ محمّد خير الدّين فأثناء تجديد المجلس الإداري عام 1938م وأثناء التّعريف بأعضائها قال: "وثالثهم الشّيخ محمّد خير الدّين عميد الحركة الإصلاحيّة في بسكرة وضواحيها وهو –من بين إخوانه- ممتاز بحسن التّدبير التّجاري والفلاحي، الذي قلّ أن لا يعود عليه بالأرباح لكنّه كثيراً ما ترك ذلك في سبيل خدمة الجمعيّة بذلك التّدبير، وهو مراقب الجمعيّة العام"[18]. لقد كان الاستعمار الفرنسي وعملاؤه يتتبّعون ما يقوم به الشّيخ محمّد خير الدّين وكانوا يعرفون أنّه أحد أعمدة الحركة الإصلاحيّة في الجنوب الشّرقي، وللحدّ من نشاطه وعرقلته صدر أمرٌ من عامل العمالة يقضي بنفيه، وأبلغه عميد الشّرطة ببسكرة بذلك ووضعه تحت الإقامة الجبريّة "بمجانة" في دائرة برج بوعريريج، وقضى بها شهرين ليطلق سراحه بعد استجوابه وتأكيده على أنّه يقوم بأعمال تربويّة دينيّة لا علاقة لها بالسياسة أو بتهديد فرنسا[19].

وإنّ الحنكة الدبلوماسيّة التي اكتسبها الشّيخ محمّد خير الدّين كان مصدرها تنقّلاته المستمرّة في أنحاء القطر في إطار جمعيّة العلماء، والصّدامات المستمرّة مع الإدارة الفرنسيّة كما أنّه كُلّف بمهمّة في غاية الأهمّيّة عام 1952م أثناء الاجتماع الذي عقدته جبهة ميثاق اتّحاد حزب الشّمال الإفريقي بباريس حيث شاركت فيه أحزاب مختلفة من تونس والمغرب وشارك من الجزائر حزب البيان الجزائري وحزب انتصار الحرّيات الدّيمقراطيّة، أمّا العلماء كان على رأسهم الشّيخ البشير الإبراهيمي الذي كان في الحقيقة هو الدّاعي إلى عقد هذا الميثاق، وقد خرج المؤتمرون بوثيقة سُلّمت إلى السّيّد "تريفيلي" الكاتب العام لجمعيّة الأمم، وقد قام الشّيخ محمّد خير الدّين، والشّيخ العبّاس بتسليمها نيابة عن وفد أحزاب شمال إفريقيا[20]. وعلى كلّ حال فمكانة الشّيخ في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين محفوظة، وقيمته معلومة، وبصمته مشهودة، فسحت له الطّريق للعمل الإصلاحي والتّربوي في

18- عبد الحميد ابن باديس، المجلس الإداري لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة البصائر، العدد137، 28 أكتوبر 1938م، ص2.

19- محمّد خير الدّين، مذكرات الشّيخ، ج1، ص227.

20- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990م، ص66-69، وأبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1988م، ص100.

الجنوب الشّرقي الجزائري قبل وأثناء وبعد ثورة التّحرير.

3،2. فكر الشّيخ محمّد خير الدّين الإصلاحي:

إنّ الإصلاح عند الشّيخ محمّد خير الدّين لا يختلف عن الإصلاح عند باقي القادة المسلمين، فهي عمليات متواصلة فهو يركّز على إصلاح النّفس باتّباع الدّين الصّحيح بالكتاب والسّنّة، كما أنّه يركّز على إصلاح المجتمع بنشر الفضائل والآداب ويركّز أيضاً على النّشء أو الشّباب بضرورة تعليمهم اللّغة والدّين، وتعريفهم بتاريخهم المجيد الإسلامي والوطني.

لقد كتب الشّيخ محمّد خير الدّين مجموعةً من المقالات في البصائر والشّهاب؛ عالج في أغلبها قضيّة التّعليم، ففي أوّل مقال كتبه سنة 1927م في جريدة الشّهاب بعنوان: "نهضة الجزائر الدّينيّة أو موقف المصلحين إزاء خصومهم" تحدّث الشّيخ عن الإصلاح بحماس كبير وحثّ على اتّباع الأمّة لدينها والنّهوض به والابتعاد عن الباطل والخرافات، ويجب على الامّة ان تساعد المصلحين، وهاجم أولئك الذين يعرقلون الإصلاح ويقفون ضدّه، واتّهمهم بأنّهم يخافون على مناصبهم ومكانتهم، ويبيّن أهميّة الإصلاح الدّيني بقوله: "ذلك هو الأمر الجلل الحامل لعلماء الإصلاح على الإصداع بكلمة الحقّ وإن كانت مرّة المذاق وهو الباعث الأصلي لهم عن التّجاهر بقضية الإصلاح الدّيني إذ هو الرّكن الأعظم الذي عليه مدار حياتنا معشر المسلمين"[21].

ويمكن تلخيص جهوده الإصلاحيّة في النّقاط الآتية:

أوّلاً- فكره الإصلاحي من خلال مقالاته: كان الشّيخ محمّد خير الدّين صاحب الامتياز في مجلّة البصائر في سلسلتها الأولى من 1935م إلى 1939م، حظيت بمقالات كتبها الشّيخ تدور في أغلبها حول التّعليم العربي الإسلامي، ومنها ما هو موجّهٌ إلى الطّرقيّين، فقد كان يرى الشّيخ التّعليم العربي الإسلامي جزءاً هامّاً من هذه الأمّة، وما قامت به الإدارة الفرنسيّة من للكتاتيب القرآنيّة وللمدارس الأهليّة الدّينيّة هو في الحقيقة طمس لكيان الأمّة وهويّتها وضرب في جذورها التّاريخيّة الإسلاميّة، حيث سنّت قوانين منها ما أكّد فصل الدّين عن الدّولة، لكنّه طبّق على المسيحيّة واليهوديّة فقط، ولم تطبّق على الدّين الإسلامي، ويرى الشّيخ محمّد خير الدّين أنّ الحرّيّة الدّينيّة ضروريّة لكي تسير بشكل صحيح: "في هذا الذي يسمّونه عصر النّور والمدنيّة في هذا الوطن...تُقفلُ المكاتب القرآنيّة وتوصد المدارس الأهليّة الدّينيّة ويضرب على أيدي القرّاء ورجال الدّين فيُحال بينهم وبين أداء وظيفتهم التي هي نشر تعاليم الإسلام... في حين إنّنا نرى رجال الدّين من الكاثوليك والبروتستانت حتّى التّابعين

21- محمّد خير الدّين، التّعليم العربي الإسلامي بالجزائر-محاولة القضاء عليه-، جريدة البصائر، العددج115، 27ماي 1938م، ص2.

لحكومات أجنبيّة منهم والمشعوذين المنسوبين إلى الإسلام... يتمتّعون بكلّ حرّيّة في حلّهم وترحالهم"[22].

وكانت كتاباته تهاجم الطّرقيّين والمناوئين للجمعيّة وتدعو إلى القضاء على البدع والأباطيل والشّعوذة، ومحاربة المرابطين الذين كان دورهم سلبياً فحياتهم التّعليميّة والدّينيّة في الزّوايا كانت جامدة تدور في دوّامة فارغة حيث إنّها لم تتغلغل داخل المجتمع ولم تفتح له الطّريق ليتعلّم الأساليب التي يدافع بها عن دينه ولغته، بل بالعكس كان أصحاب الزّوايا هم الذين ينتظرون من يأتي إليهم ليتعلّم التّخاذل والجمود ويستسلم لواقعه، ويقول الشّيخ محمّد خير الدّين في ذلك: "وأوضح برهان على ضرر الطّرقيّة وأثرها الفعّال في موت الشّعوب أنّها ما انتشرت في بلد إلاّ كان عنوان الجمود والتّأخّر والانحطاط وكان أُكلة سائغة للآكلين وما قلّت في بلد إلاّ كان أقرب إلى النّهوض والسّعادة ودونك تاريخ الأمم والشّعوب تجد ما قلته لك صحيحاً"[23].

ثانياً- فكره الإصلاحي من خلال الخطابة والتّدريس المسجدي: لقد كان الشّيخ محمّد خير الدّين يركّز على المدارس والمساجد في إصلاح المجتمع بالخطب التي كان يُلقيها والاجتماعات التي كان يُجريها، والمجالس التي كان يغشاها، والمدارس التي كان يبنيها في مختلف أنحاء القطر الجزائري في إطار نشاط جمعيّة العلماء؛ كم انّه كان يقوم بتوعيّة الجزائريين بحقوقهم الوطنيّة والسياسيّة وقد استلهم كلّ هذا بمشاركته في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، وفي بيان الشّعب الجزائري سنة 1943م، كما أسّس إلى جانب شخصيات سياسية جبهة الدّفاع عن الحرّيّة واحترامها سنة 1951م، وقد احتوت هذه اللّقاءات والمؤتمرات كلّ الاتّجاهات السياسية رغم أنّ العلماء أكّدوا في مبادئ الجمعيّة أنّها غير معنيّة بالسياسة وليس معنى ذلك أنّها غير مهتمّة بالسياسة، فيقول الدّكتور أبو القاسم سعد الله في هذا الصّدد: "والإصلاح بالمعنى الشّامل قد يبدأ بالثّقافة أو بالدّين أو بالمجتمع ولكنّه في نهاية الأمر يُغطّي كلّ مظاهر الحياة في مجتمع ما بما في ذلك السياسة... فالإسلام كما هو معروف دين ودولة، ولا يمكن أن نتحدّث عن الإصلاح في الإسلام مجرّداً عن معنى الدّولة وهذا حتماً هو عين السياسة"[24].

وقد بلغ شغف الشّيخ بالكفاح الإصلاحي إلى درجةِ أنّه لم يفرّق بين الإصلاح الدّيني والإصلاح الوطني، بل كان يرى أنّهما متكاملان ومتلازمان، فقد كان يعمل إلى جانب زملائه من العلماء إلى بلوغ الهدف الثّاني للجمعيّة بعد تكوين جيل متشبّع بثقافته العربيّة الإسلاميّة الذي هو الجهاد وتحرير البلاد وفي هذا الصّدد يقول الدّكتور عبد الكريم

22- المصدر السّابق، ص4.

23- محمّد خير الدّين، للحقيقة والتّاريخ في الزّوايا، جريدة البصائر، العدد124، 29جويلية 1938م، ص2.

24- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص89.

بوصفصاف: "والحقّ أنّ ابن باديس لم يفصل في حركته بين النّظريّة والتّطبيق أو بعبارة أدق لم يفرّق بين العقيدة والمنهج، وقد بدأ الإصلاح هيّناً جعل الاستعمار يظنّ أن لا خطر فيه، ذلك أنّه بدأ يتكلّم عن الدّين والأخلاق والعقيدة، وضرورة الإصلاح الدّيني والتّضحيّة من أجل الآخرين والشّورى عند المُلمّات، استعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح"[25].

ثالثا- فكره الإصلاحي من خلال العمل القاعدي في تنشئة الأجيال: والشيخ محمّد خير الدّين من الذين يؤمنون بالعمل القاعدي في تنشئة الأجيال أي الانطلاق من الأساس الذي هو الدّين واللّغة مع متابعته ومسايرته في ظلّ الظّروف السياسية حتّى يكون الجيل يقضاً؛ لأنّ الاستعمار من أهدافه جعل الأمّة تعيش في سبات عميق كي لا تطالب بحقوقها والحقوق تأتي بالممارسة، وقد تتلاقى هذه الفكرة مع ما قاله الشّيخ ابن باديس حسب ما ذكره الشيخ محمّد خير الدّين في مذكّراته: " وأذكر أنّه ذات يوم من عام1933م التفّ نفرٌ من الشّباب المتحمّس حول الإمام ابن باديس بنادي التّرقّي وطلبوا منه أن يرفع صوته قويّاً مدوّياً عالياً مطالباً باستقلال الجزائر وحرّيّتها فقال –رحمه الله-: وهل رأيتم أيّها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيّد الجدران؟ فقالوا: كلاّ ولا يمكن، فقال لهم: إنّ من أراد أن يبني الأسس ويقيم الجدران أوّلاً ثمّ يشيّد السّقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمّة فإنّه يبدأ من الأساس لا من السّقف"[26].

لقد كان الشّيخ –رحمه الله- مؤمناً بالعمل الإصلاحي الدّيني والوطني، وبرز تحرّكه جليّاً في النّشاط الوطني السياسي رغم أنّ الجمعيّة لم تعلن صراحة اهتمامها بالسياسة حتّى أنّ معظم رجالها التزموا بذلك، وهذا ما جعل منه رجل دين وسياسة، يقول في مذكّراته: "تبلورت فكرة الحرّيّة والاستقلال في حرّيّة الإصلاح الدّيني، والحفاظ على مقوّمات الشّخصية الجزائريّة والسّير بالنّهضة الإصلاحيّة خطوةً خطوةً حتّى بلوغ الغاية المنشودة، وقد تبنّى هذا الاتّجاه رجال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الإمام ابن باديس"[27].

4. جهود الشّيخ محمّد خير الدّين في المجال التربوي

4. 1. فكره التربوي من خلال نشاطه التعليمي:

كان الشّيخ يؤمن بدور التّربية والتّعليم في خدمة الشّعب الجزائري وإيقاظه من سباته، وحفظ تراثه فشارك في تشييد المدارس الحرّة لتعليم وتربية النّشء فيتعلّمون اللّغة العربيّة والدّين الإسلامي، كما أنّهم يتلقّون معارف أخرى كالتّاريخ والجغرافيا والحساب، ليعرفوا

25- عبد الكريم بوصفصاف، الأبعاد الثّقافيّة والاجتماعيّة والسياسية في حركتي محمّد عبده وعبد الحميد ابن باديس-دراسة فكريّة تاريخيّة مقارنة-، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1981م، ص229.

26- محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ، ج1، ص289.

27- المصدر نفسه، ج1، ص272.

جيّداً تاريخ بلادهم لأنّ الاستعمار الفرنسي كان هدفه القضاء على دين ولغة وتاريخ هذه الأمّة. ولقد شعُرَ الشّيخُ بهذه المسؤوليّة لاسيما وأنّه أصبح يُعدّ من الرّموز العلميّة في الجنوب الشّرقي الجزائري؛ فقد بدأ نشاطه التّربوي والتّعليمي منذ أن عُقد اجتماع الرّواد سنة 1928م حيث كلّفه الإمام عبد الحميد ابن باديس بالوعظ والإرشاد بمسجد فرفار مسقط رأسه والقرى المجاورة لها، فتخرّج على يديه هناك علماء أجلاّء كان في طليعته الشّيخ العلاّمة أحمد سحنون اللّيشاني، فاستفاد منه خلق كثير بحيث كان يعلّمهم مبادئ الدّين واللّغة، وبعدها يتوجّهون إلى قسنطينة أو إلى تونس أو إلى جامع الأزهر بمصر لمواصلة التّحصيل المعرفي، وقد كان نشاطه التّعليمي هذا بالتّنسيق مع جماعة من الفضلاء والعلماء كان من بينهم الشّيخ الطّيّب العقبي، والشّيخ علي بن عمارة البرجي، والشيخ محمّد العيد آل خليفة، والأستاذ الأمين العمودي.

فقد كان له إسهاماً كبيراً في تكوين "جمعيّة الإخاء" وتأسيس مدرسة الإخاء للتّربية والتّعليم ببسكرة سنة 1931م، واقترح أن يكون مجلس الإدارة من أعضاء لهم علاقة بالسّلطة الفرنسية كي لا تقوم هذه الأخيرة بعرقلة نشاطها؛ أمّا الشّيخ محمّد خير الدّين فقد عُيّن ككاتب عام فقط وهذا لضمان السّير الحسن للمدرسة ونشر الثّقافة العربيّة الإسلاميّة[28]. فقد انطلق الشّيخ في عمله الإصلاحي من بلدته "فرفار" ثمّ بسكرة وكان يؤمن إيماناً راسخاً بدور التّربية والتّعليم في الحفاظ على كيان وتراث الأمّة، خاصة أنّ منطقة الجنوب كانت تعاني من نشاط المرابطين، فأسّس جمعيّةً خيريّةً لإعانة الفقراء والمساكين وتعليم البنين والبنات مقرّها بسكرة كان رئيسها "اصميدة عبد القادر" وتولّى الشّيخ منصب النّيابة كي لا يصدم بالسّلطات الفرنسيّة.

التّربية والتّعليم استقبال كلّ التّلاميذ، وعليه قرّر الشّيخ محمّد خير الدّين مع الأعضاء إنشاء مدرسة جديدة، فشرع في البناء بنشاط مكثّف وكانت المرحلة الأخيرة قد بدأت في 18ديسمبر1949م، عندما حلّ الشّيخ البشير الإبراهيمي رئيس الجمعيّة بدعوة من الجمعيّة المحلّية وتمّ توجيه الدّعوة إلى سكّان بسكرة والزّيبان ومن مختلف أنحاء القطر، فحضر الحفل العلماء والنّواب والأطباء والمحامون، وتمّ افتتاح المدرسة، وكان ممّا قاله الشّيخ محمّد خير الدّين في كلمته: "إنّكم ستستمعون منّي كلمات ليست من باب الحمد والشّكر ولكنّها من باب الحثّ والإزعاج، وسأصل بها مبدأ هذا العمل بنهايته فقد بدأنا مجتمعين... وما دمنا في موقف استنهاض الهمم وشدّ العزائم وما دمت عارفاً بأسرار لغتي وتاريخ أجدادي، فإنّني أؤثر أن يكون افتتاح هذا الحفل التّاريخي بالشّعر... فأنا أريد أن أرجع بكم إلى ذلك الماضي الجليل، ولئن قال لنا أقوام: إنّكم تعيشون في الماضي والعمل للحاضر

28- محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ، ج1، ص78.

والاستعداد للمستقبل"[29].

وممّا قاله: "فإنّ العلم أشرف المطالب وأسمى المقاصد والرّغائب فهو حياة الأمم وهو عزّها ومجدها... لقد فهم أسلافنا العظام هذه الحقائق فأقبَلوا على العلم بجميع فنونه وتهافَتوا على مناهله العذبة يكرعون منها فسادوا في الدّنيا وقادوا الأمم وفتحوا –مع البلدان- القلوب والعقول ورفعوا مشعل الحضارة والمدنيّة"[30]. يمكن القول أنّ الشيخ كان يخوض تنقّلاته ويقوم بدوره التّربوي بكلّ شجاعة من الشّرق إلى الغرب، ومن الشّمال إلى الجنوب تاركاً وراءه تلك الخطب البليغة الحماسية المثيرة للنّفوس، وخلفه تلك القلاع الحصينة من مدارس ومساجد، التي وبدون شكّ قد منعت الاستعمار الفرنسي من تسلّق أسوارها العالية المحصّنة بالدّين الإسلامي واللّغة العربية، ووراءها جندٌ من أبناء الجزائر، وبتلك الإنجازات التّربويّة التي قام بها الشّيخ إلى جانب أقرانه العلماء استطاعوا أن يحافظوا على مقوّمات الشّخصية الوطنيّة.

2. 4. فكره التربوي من خلال نشاطه الصّحفي

لقد نشط الشّيخ محمّد خير الدّين كباقي الكتّاب المصلحين بدعمه وتأييده للصّحافة الإصلاحيّة وكانت البداية بمشاركته في شراء مطبعة بهدف إصدار جريدة "الإصلاح" ببسكرة، يقول الشّيخ في مذكّراته: "كان أوّل أعمالي ببسكرة السّعي لشراء مطبعة بالاشتراك مع جماعة من المصلحين وذلك بهدف إصدار جريدة "الإصلاح" التي أدارها الشّيخ الطّيّب العقبي"[31].

وبفضل إسهام الشّيخ محمّد خير الدّين والشّيخ محمّد العيد آل خليفة، والشّيخ الأمين العمودي تمّ شراء تلك المطبعة القديمة من قسنطينة والتي سمّاها "المطبعة العلميّة" التي واصلت مسيرتها في نشر المقالات الدّينية والاجتماعيّة، ومع ظهور صحافة الجمعيّة وتطوّرها بعد سنة 1931م نشطت أكثر الصّحافة الإصلاحيّة رغم تعطيل السّلطة الفرنسيّة لبعض الصّحف سنة 1933م، وهي: "السّنّة النّبويّة، الشّريعة، الصّراط السّوي" أمّا مجلّة الشّهاب فقد استمرّت إلى غاية 1939م، والتي كان الشّيخ محمّد خير الدّين أحد كتّابها، كما شقّت جريدة البصائر نفس الطّريق وهي أيضاً من أهم جرائد الجمعيّة التي بقيت لمدّة طويلة وصدرت في سلسلتين: السّلسلة الأولى تمتدّ ما بين 1935م إلى 1939م وكان الشّيخ محمّد خير الدّين صاحب الامتياز فيها ورئيس تحريرها الشّيخ العقبي، أمّا السّلسلة الثّانية فصدرت

29- الحفناوي هالي، وصف الاحتفال الرّائع بفتح مدرسة بسكرة، جريدة البصائر، العدد140، 15/14 فيفري 1951م، ص6-7.

30- جريدة البصائر، مقال: خطاب فضيلة الأستاذ محمّد خير الدّين في الاحتفال بالنّاجحين في الشّهادة الأهلية بالمعهد، العدد281، 30 جويلية 1954م، ص2.

31-محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ، ج1، ص78.

ما بين 1947م إلى 1956م وكان الشّيخ البشير الإبراهيمي صاحب الامتياز فيها ورئيس تحريرها.

وفيما يخصّ المقالات التي كتبها مترجمنا في الشّهاب والبصائر فهي تعالج مواضيع تدخل في إطار الحركة الإصلاحيّة، وتعالج أيضاً قضايا التّعليم العربي الإسلامي والتّعليم الرّسمي، حرّية المساجد، وقضية فصل الدّين عن الدّولة وغيرها من الموضوعات المهمّة. ففي إحدى المقالات يقول: "في هذا العصر شاع فيه العلم بين سائر الأمم وأصبح حقّاً طبيعيّاً لكلّ إنسان كيفما كان جنسه ولونه أن يطالب بنصيبه في العلم لتكمل بذلك إنسانيّته وتهذّب طباعه فيؤدّي وظيفته في هذه الحياة كعضو نافع غير ضار... في هذا العصر الذي يسمّونه عصر الثّورة المدنيّة... توصد المدارس الأهليّة الدّينيّة...ونعلن لكافّة المعلّمين والجمعيات الدّينيّة أن يدافعوا لدى المحاكم الابتدائيّة والمحاكم العليا عن حقّهم الذي خوّله لهم القانون حين يرجع الحقّ إلى نصابه..."[32].

لقد كانت المقالات التي كتبها الشّيخ محمّد خير الدّين –رحمه الله- متنوّعة وفي اتّجاهات مختلفة، حتّى تعطّل العمل الصّحفي عموماً خلال الحرب العالميّة الثّانية (1939-1945) حيث أصبحت كلّ الصّحف في شلل تام بسبب تجميد نشاطها السياسي وفق المرسوم الذي صدر بتاريخ 27أوت 1939م، القاضي بمصادرة جميع الجرائد التي تتعرّض إلى قضايا الأمن الوطني[33].

ورغم القرارات التي كانت تصدرها السّلطة الفرنسية إلاّ أنّ نشاط الصّحافة الإصلاحيّة استمرّ بعد الحرب العالميّة الثّانية وانطلقت جريدة البصائر في سلسلتها الثّانية منذ 1947م، وواصل الشّيخ محمّد خير الدّين نضاله الصّحفي كباقي زملائه المصلحين في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين باتباع نهج الإمام عبد الحميد ابن باديس إلى ان توقّف نشاط الجمعيّة نهائياً سنة 1956م، والتحق أعضاؤها بالثّورة التّحريريّة بعد أن تبلور الهدف الذي طالما تمنّاه الجزائريّون وأعدّت له جمعيّة العلماء صنوفاً من جنودها بعد أن درّبتهم على الدّفاع عن دينهم ولغتهم ليأتي الهدف الأخير وهو تحرير الوطن.

5.خاتمة

بعد هذه الجولة المختصرة التي تعرّفنا فيها على أحد روّاد الحركة الإصلاحيّة والتّعليمية والدّعوية، وأحد السّابقين إلى النّضال الوطني من أجل العمل على صيانة الهويّة الدّينية والتّاريخيّة للشّعب الجزائري؛ وهو الشّيخ الأستاذ المصلح محمّد خير الدّين الفرفاري

32-محمّد خير الدّين، التّعليم العربي بالجزائر، جريدة البصائر، العدد115، 27ماي 1938م، ص3.

33- عمّار بوحوش، التّاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ص264.

الطّولقي البسكري يمكن أن نسجّل الخلاصات الآتية:

- لقد كانت نشأة الشّيخ محمّد خير الدّين في ظروف ميّزها الوجود الاستعماري الذي كان حكمه عسكريّاً في الجنوب، ممّا ولّد في نفسه الحقد والكراهيّة اتّجاه هذا الأجنبي المحتل خاصة أنّه كان هو وأبناء منطقته محرومين من حقّهم في التّعلّم، ولم يكن في قريتهم من يدرّس الطّلاّب، ولكن فتح الله عليه بأن انتقل إلى قسنطينة لينهل من علم مشايخها ثمّ إلى تونس ليروى من زيتونتها.

- الشّيخ محمّد خير الدّين حظي بمكانة سامقة في إطار جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت له حظوة عند رئيسها العلاّمة عبد الحميد ابن باديس الذي منحه ثقةً كبيرةً جعلت منه رمزاً حقيقياً من رموز الإصلاح في الجنوب الشّرقي الجزائري؛ بل في كلّ القطر الجزائري.

- إنّ نظرة ومنهج الشّيخ محمّد خير الدّين للإصلاح لم يفرّق فيه بين الإصلاح الدّيني والثّقافي والإصلاح الوطني، بل جمع بينهما بذكاء وقّاد، وحكمة بالغة، جلّت على جهوده الكبيرة في إعادة تأهيل أفراد الشّعب الجزائري في الجنوب الشّرقي وغيره علمياً وثقافياً وتربويّاً.

- يمكن اعتبار ما كتبه الشّيخ محمّد خير الدّين من مقالات وإن كانت قليلة هي إضافة إلى مقالات أخرى كتبها زملاؤه المصلحون كوسيلة من وسائل الجمعيّة للتّعبير عن تمسّك الجزائريين بدينهم ولغتهم ووطنهم، وأنّ ما كتبه الشّيخ لم يكن للإبداع أو الإمتاع؛ وإنّما لمواجهة الاستعمار الفرنسي وذيوله وأعوانه.

6. قائمة المراجع

*** المؤلفات:**

- بوحوش عمّار، التّاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م.
- بوصفصاف عبد الكريم، الأبعاد الثّقافيّة والاجتماعيّة والسياسية في حركتي محمّد عبده وعبد الحميد ابن باديس-دراسة فكريّة تاريخيّة مقارنة-، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1981م.
- حمّاني أحمد، صراع بين السّنّة والبدعة، دار البعث قسنطينة، ط1، 1984م.
-خير الدّين، محمّد مذكّرات الشّيخ محمّد خير الدّين، مؤسّسة الضّحى، الجزائر، 2002م.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990م.
- سعد الله أبو القاسم، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1988م.
- صيد عبد الحليم، معجم أعلام بسكرة، دار النّعمان، الجزائر، ط1، 1014م.
- طالبي عمّار، آثار ابن باديس، دار النّهضة العربية، بيروت، ط1، 1968م.
- العسيلي بسّام، عبد الحميد ابن باديس وبناء قادة الثّورة الجزائريّة، دار النّفائس،

بيروت، ط2، 1983م.
- فضلاء محمّد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة هومة، الجزائر، 2000م.
- هلاّل عمّار، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1995م.
*** الأطروحات:**
- الهلالي أسعد، الشيخ محمّد خير الدّين وجهوده الإصلاحيّة في الجزائر 1902-1993، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، نوقشت عام2006م.
*** المقالات:**
- خير الدّين محمّد، التّعليم العربي الإسلامي بالجزائر-محاولة القضاء عليه-، جريدة البصائر، العددج115، 27ماي 1938م.
- خير الدّين محمّد، للحقيقة والتّاريخ في الزّوايا، جريدة البصائر، العدد124، 29جويلية 1938م.
- سحنون أحمد، تأبينيّة شيخي العظيم الإمام محمّد خير الدّين، مجلّة الموافقات، العدد3، الجزائر، جوان 1994م.
- عبد الحميد ابن باديس، المجلس الإداري لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة البصائر، العدد137، 28 أكتوبر 1938م.
- هالي الحفناوي، وصف الاحتفال الرّائع بفتح مدرسة بسكرة، جريدة البصائر، العدد140، 15/14 فيفري 1951م.
- جريدة النّجاح، مقال العلماء الجدد من كلّيّة الزّيتونة، العدد 216، 10 جويليّة1925م.
- جريدة المنار، مقال: لجنة إنشائيّة لتأسيس جبهة جزائريّة للدّفاع عن الحرّيّة واحترامها، العدد6، 30 جويلية 1951م.
- جريدة البصائر، مقال: خطاب فضيلة الأستاذ محمّد خير الدّين في الاحتفال بالنّاجحين في الشّهادة الأهلية بالمعهد، العدد281، 30 جويلية1954م.